4

تقويض اتحاد تجار الجنس

أوروبا

سـان فـوكا San Foca، قرية صغيـرة لصيد الأسماك، تقـع على الحافة الجنوبيـة لخارطة إيطاليا التي تشبه حذاء طويلا. هذه القرية تغويك بسحرها؛ حيـث تتلاطم الميـاه اللازوردية لبحر الأدرياتيك علـى الصخور الرمادية التي تنتشر على امتداد شواطئها، فتغسلها ثم تتركها للحظات قبل أن تعود لمداعبتها مرة أخرى. وقبل مغيب الشمس، تصطف القوارب متكاسلة على مياه ميناء سان فوكا، في حين ينشغل الصيادون في إصلاح شباكهم. وبعيدا، حيث لا تراه العين، يوجد الساحل الألباني الساحر وميناء مدينة فلوري.

ومع أن كل هذا قد يبدو مشهدا طبيعيّا أخّاذًا، إلا أنه في الوقت ذاته يضم أشهر ممرات تجارة الجنس المعاصرة. ففي الساعات المتأخرة من الليل، يشغّل رجالات المافيا الألبانية محركات قواربهم لنقل المهاجرين عبر مسافة 44 ميلا بحريّا، والتي تمتد بين فالوري وسان فوكا.

يدفع بعض الركاب لهؤلاء المهربين مبالغ كبيرة لنقلهم إلى حياة الأحلام فـي الغرب، إلا أن كثيرا من هـؤلاء المُهرِّبين لا يختارون السفر عبر هذا الممر، حيث تتجنبـه عصابات الإجرام، وتتبع طرقا التفافيـة معقدة لنقل النساء عبر الحدود الدولية. كانت هذه الخطوط الملاحية تستخدم أصلا لتهريب المخدرات والأسلحة، أما اليوم، فتُستخدم لنقل البضائع البشرية أيضا.

وقد بـرز ممر البلقان كواحد من أشهر الممـرات سيئة السمعة المرتبطة بالتهريب، إذ يجري عبر هذا الممر تهريب آلاف الفتيات من دول أوروبا الشرقية

كل عام، وتوزيعهن على أسواق الدعارة حول العام. وغالبًا ما تنتمي الضحية إلى دولة كانت عضوًا سابقًا في المعسكر السوفيتي. ويجري تهريب هذه الضحية من بلدها الأصلي عبر رومانيا، وصربيا، والجبل الأسود، أو كرواتيا، ومن هناك إلى ألبانيـا، ومن ثَمَّ إلـى إيطاليا. أما الوجهة النهائيـة المحتملة للضحية فهي دول الاتحاد الأوروبي على الأغلب، مع أن عددًا كبيرًا من الفتيات يجري تهريبهن إلى الولايات المتحدة، والشرق الأوسط، أو منطقة آسيا – الباسيفيكي.

ويمكننا أن نرى في شوارع بانكوك المدى الذي وصلت إليه ممرات التهريب هذه. فمع حلول الليل، تبدأ موجات من الفتيات الشقراوات، بملابسهن القصيرة، وعلى وجوهن زينة مفرطة، في الطواف عبر الحي الإسلامي. ويبدو المشهد غريبًا وشاذًا؛ حيث تشاهد أولئك النساء من أوروبا الشرقية يتجمعن على الأرصفة وسط بحر من النساء المسلمات المرتديات البراقع السود، والرجال المسلمين الذين يرتدون قمصانـا وسراويل وقبعات بيضاء، حيث يشير اللون الأبيض إلى طهارة النيـة والعمل. ولذلك، فإنّ حقيقة أن الاستغلال الجنسي يستطيع أن يزدهر بلا حياء في تحد ظاهر لقيم الناس الدينية المتجذّرة، يشير إلى التحديات الكبيرة التي تنتظر مناهضي العبودية في حملتهم لإنهاء تجارة الجنس هذه.

بادري تشيزاري لوديزيرتو؛ مفترق طرق الفقر والغنى

بـرز مناهض العبودية غيـر المتوقع تشيزاري لوديزيرتـو Padre cesare Lodeserto فجـأة عقبة كأداء أمام عصابات الإجـرام التي تدير ممر البلقان. سبق لهذا الرجل، الذي ولد وترعرع في جنوب إيطاليا، وأن عمل مع الفقراء في البرازيل ورواندا، وأنشأ في عام 1995 ملجأ لإيواء المهاجرين في قرية سان فوكا.

أطلق الرجل على المركز اسم ريجينا باسز «ملكة السلام»، وهو رمز مناقض للعنف والجشع اللذين ينتزعان الفتيات من بيوتهن. شُيّد الملجأ أساسًا ليستوعب

250 شخصًـا علـى أبعد تقدير، ولكن عدد المهاجريـن أصبح فوق طاقة الملجأ الاستيعابية، حيث يتكوّم في غرفه وممراته أكثر من 600 شخص كل ليلة.

فـي المراحل الأولى من موجـات الهجرة، كان الذين يصلـون إلى الملجأ يتألفـون من: عائلات بكاملها، أمهات وحيـدات، مراهقين، وحتى أطفال صغار مسافريـن لوحدهم. ومع حلول عام 1999 حدث تغيّـر في التركيبة الديمغرافية (السكانيـة) لقاطني الملجأ، بعد أن بـدأت فتيات صغيرات من أوروبا الشرقية يلجأن إليه طلباً للعون والحماية. كما لاحظ بادري زيادة كبيرة في عدد الفتيات السلافيات اللواتي يبعن أجسادهن في شوارع سان فوكا، وبلدتي ليسي وبرنديزي الساحليتين المجاورتين. وقد أخبرته الفتيات اللواتي التقاهن عن عمليات خطف واغتصاب واستغلال تجاري.

خصص بـادري جناحا في الملجأ لإيواء النسـاء المُهرّبات. واستطاع مع مرور الوقت أن يتتبع مسار المهربين إلى أوروبا الشرقية. وهو يقول إن الجغرافيا منحتـه موقعا مطلًّا فريدًا لفهم آليات تجارة الرقيق المعاصرة؛ فسان فوكا تعدّ ملتقى اصطدام ثروة العالم وفقره.

ناديا؛ العرض

عندمـا ودعت ناديـا ابنها ستيفان، اكتشفـت أن الأمر أصعـب مما كانت تتصـوره. كان عمر ابنها ست سنوات، ولذلك لـم يستطع أن يفهم السبب الذي يجعل أمه تتركه، فسألها عندما دخلت الغرفة حاملة حقيبتها: أمّاه، أأنت غاضبة منـي؟ عندئذٍ، أحست كلماته سكينا ينغرس في قلبها.

كلا، أنـا لا أتخلـى عنـك. ماما تحبّـك. قالت له ذلك وهي تـذرف دموعا سخية. سوف أجمع بعض المال، وسوف أعود قريبًا. قالت ذلك، ثم اندفعت خارج الباب قبل أن تنهار. في بداية الأمر، لم تفكر بعرض كاترينا للعمل نادلة مطعم

في إيطاليا. كانت تعرف فتيات كثيرات غادرن مدينة كيشيناو للعمل في الغرب، ولكنها لم تعرف كيف يمكنها تدبر أمر ستيفان وهي وحيدة في دولة أجنبية. فهنا في مولدوفا، على الأقل، يمكن أن تعيله أسرتها، وتعتني به ريثما تجد عملا. لكنها غيّرت رأيها في اليوم الذي لم تستطع فيه تسجيل ستيفان في المدرسة. يومها، لم تتمكن من دفع رسوم التسجيل أو ثمن الزي المدرسي. أما عائلتها، فلم تتمكن من مساعدتها لأنها صرفت كل ما لديها على شراء الطعام. بعد تلك التجربة المحزنة في مكتب المدرسة، ذهبت ناديا تبحث عن كاترينا في المقهى الذي تعمل فيه. كانت تعرف كاترينا منذ أيام المدرسة الثانوية، ومع أنها لم تكن صديقتها الحميمة، إلا أنهما كانتا تلتقيان كثيرا في المناسبات الاجتماعية. عندما التقتا آخر مرة، ذكرت كاترينا أن لها معارف في إيطاليا يوظفون الفتيات المراهقات، وطلبت إليها إخبارها فيما إن كانت مهتمة بهذا الأمر.

وجدت كاترينا في إحدى زوايا المقهى. وبعد محادثة قصيرة، انتقلت ناديا إلى الموضوع مباشرة، وقالت: هل تذكرين آخر مرة أخبرتني فيها عن وجود وظائف في إيطاليا؟ إنني على استعداد للعمل إذا كانوا راغبين بذلك. بكل تأكيد، قالت كاترينا وهي تعبر عن سرورها لمساعدتها صديقتها، ثم أضافت: لقد تحدثت مع معارفي للتّو، وقد أعلنوا عن وظائف جديدة، ولكنهم يريدون ملء هذه الشواغر بسرعة. هل تستطيعين أن تسافري بعد أسبوع من الغد؟

وجدت ناديا نفسها أمام لحظة المواجهة مع الذات: هل تستطيع العيش بعيدة عن ستيفان؟ طرحت هذا السؤال بعيدًا، ثم قالت لنفسها: ربما جمعتُ مبلغا كافيًا من المال في مدة سنة، ثم أعود إليه. لم تجعل كاترينا تنتظر طويلا، فقالت: حسنا، فليكن ذلك. رائع، قالت كاترينا بحماس، سوف نقضي وقتًا ممتعًا في إيطاليا. وبعد ثمانية أيام، طلبت من ناديا الحضور إلى شقتها مع حقيبتها استعدادًا للسفر.

تشيزاري لوديزيرتو؛ نداءات الاستغاثة

بمـا أنه قد بُني فـي ساحة معسكر صيفي سابـق، كان ملجأ ملكة السلام يبدو للوهلة الأولى سجنًا شديد الحراسة؛ حيث كان محاطًا بسلاسل، وجدران، وأسلاك شائكة. كما كانت القضبان الحديدية تغطي النوافذ القليلة التي تضفي عليـه مسحة من الجمـال. كان المدخل هو الوحيد الـذي يوحي بالترحيب. وفي الحقيقة أن هذه الترتيبات الأمنية أثبتت نجاحها، وبخاصة عندما يأتي المهربون مطالبين باسترداد «ممتلكاتهم».

فـي داخـل الملجأ، يمكن أن تستمـع من كل فتاة إلى حكايـة عن تهريبها، وسـوف تكتشف أن الفتاة المحظوظة هي التـي تستطيع التهرب في الرحلة عبر الإدرياتيكي إلـى إيطاليا. تقوم سفن خفر السواحـل الإيطالية بمراقبة عمليات التهريـب، وأحيانًا ما تعترض قاربًا مليئًـا بالمهاجرين غير الشرعيين. ولذلك، فـإن المهربين الألبان يسلكون أطول طريق بحـري لتجنب إلقاء القبض عليهم. وعندمـا تلاحقهم سفن خفر السواحل، فإنهم يلقون الأطفال الصغار في البحر لجعل السفن توقف المطاردة لإنقاذ الأطفال من الغرق.

لا يكتفي بـادري تشيزاري بتوفير الملجأ، وإنمـا يشجع الفتيات المهربات على رفع دعاوى قضائية ضد مختطفيهن. واستنادا إلى القانون الإيطالي، يمكن للأفراد الذين أجبروا على الهجرة، والذين يوافقون على الشهادة ضد من يبتزّوهم الحصول على وضع قانوني، والإقامة في إيطاليا والعمل فيها. ولا يعامل القانون الأفراد المُهرَّبين كمجرمين، وإنما كضحايا للإجرام.

ومـع ذلك، فـإن معظم الفتيات يرتعـدن خوفا من الذهـاب إلى الشرطة؛ لأن عصابـات المافيا تهدد بقتلهن أو إيذاء عائلاتهـن إذا ما شهدن ضد أفراد العصابة. يضاف إلى ذلك أن الشرطة في دول أوروبا الشرقية يكون لها دور في عملية الاختطاف. ولهذا، فإن الفتاة المُهرّبة لا تثق بالشرطة بسهولة.

لا يقلل بادري تشيزاري من المخاطر المرتبطة بالدعاوى القانونية، ولكنه يؤكـد أن المُهرِّبين سوف يدمرون حياة بنات بريئات أخريات إذا لم يوقفوا عند حدهم.

ويمكـن بعد قراءة الرسائل التي يتلقاها على هاتفه الخلوي معرفة السبب الذي يجعله يصر على ملاحقة المهرِّبين قانونيًّا. فقد كتبت إليه فتاة من رومانيا تقـول: أرجوك مساعدتي! إنهم يعاملونني أسوأ من معاملة الكلاب. أنت الوحيد الذي تستطيع إنقاذي!.

وجاء في رسالة من فتاة تعيش في مولدوفا: إنني أموت هنا! ساعدني! أنت أملي الوحيد!

فـي حين أرسلت فتاة بلغارية مستعبدة في نـادي تدليك في مدينة ميلانو رسالة تقول فيها: أنا واحدة من أربع فتيات مُحتجزات في هذا الجحيم. نخطط للهروب قريبا، آمل أن تقبلنا عندك.

بعد قراءة هذه الرسائل بصوت عالٍ، هزّ بادري رأسه بحزن، وقال: آمل أن يأتي جيل جديد من مناهضي العبودية، يكونون أكثر جرأة وشجاعة. إن المُهرِّبين يفلتون من العقاب لأن الناس الطيبين لا يستجيبون لنداءات الاستغاثة من هؤلاء الفتيات الصغيرات.

الكمين المُحْكَم

لـم يؤد انهيار الاتحاد السوفيتي في عام 1991 إلى تحقيق الآمال العظيمة التي كان يحلم بها الكثيرون الذين يعيشون في الجمهوريات المستقلة. وسرعان ما أنطفأ سحر الانبهار بالاستقلال والحرية الفردية، وحلّ مكانه الاكتئاب عندما أخـذت الصعوبات الاقتصاديـة تطرق الأبواب. وقد وعد دعـاة تحرير الأسواق

المالية بتوسيع فضاءات الاستثمارات الجديدة، ولكن تبين أن الإصلاحات فتحت الأبواب على مصراعيها لتهريب الأموال إلى الخارج.

صحيح أن الحياة في ظل النظام الشيوعي لم تكن مفروشة بالورود، إلا أن الناس كانوا يجدون وظائف، مهما كانت وضيعة، وكان القليل من الناس يعانون. وفي الوقت الذي جمعت فيه نخبة قليلة ثروات طائلة في تسعينيات القرن الماضي، عانت الشعوب هناك من معدلات بطالة عالية، واختفت الخدمات الاجتماعية. وفي ظل هذه الظروف الصعبة، جاهدت العائلات من أجل أن تظل متماسكة، دون جدوى. في حين لجأ الرجال الذين لم يقووا على مواجهة صعوبات الحياة إلى تعاطي الكحول، فأصبحوا مدمنين ولم يحّلو مشكلاتهم بعد. كما ازداد عدد دور الأيتام في المنطقة لإيواء الأطفال الذين تخلى عنهم آباؤهم.

وقد أدى تفكك الحكم السوفيتي الحديدي إلى إيجاد فراغ أمني، أو فراغ في سلطة الجمهوريات السوفيتية السابقة، فانتشرت الجريمة المنتظمة انتشار النار في الهشيم، وانتهزت العصابات أي فرصة سانحة أمامهم. وقد ثبت في حالات كثيرة أن المجرمين كانوا مسؤولين شيوعيين سابقين، استغلوا ارتباطاتهم القوية لتحقيق ثراء شخصي. كما ظهر جيل جديد من الرأسماليين الفاسدين الذين ليس لديهم وازع في تعاملاتهم التجارية.

وبعد انهيار الاتحاد السوفيتي مباشرة، استطاعت عصابات المافيا جمع أموال طائلة من تجارة السلاح والمخدرات. وأدركت عصابات الإجرام أن هناك منجم ذهب آخر في الجمهوريات السابقة يجب استغلاله؛ إنه الشابات المتعلمات صحيحات الأجسام اللواتي أصبحن مُعدمات.

بعد سقوط الستار الحديدي، بدأت النساء يعانين من البطالة. ففي أوكرانيا، مثلا، شكلت الإناث ما نسبته 80% من السكان الذين فقدوا وظائفهم في التسعينيات[1]، وتراوحت نسبة البطالة بينهن من 80% — 70% في معظم

الجمهوريات السوفيتية السابقة. وبالرغم من صعوبة العثور على عمل، ظلت النساء يتحملن المسؤولية عن بقاء عائلاتهن.

وهكذا، توافرت لعصابات الاتّجار بالبشر الموارد المثالية للاتجار بها في سوق الجنس العالمي، والمكيدة المحكمة لاصطياد هؤلاء النسوة.

في الفترتين الأخيرتين؛ السابقة واللاحقة لانهيار الاتحاد السوفيتي، نشأ جيل من الشباب في دول أوروبا الشرقية معجب بالغرب؛ يشاهد أفلامه، ويسمع موسيقاه، ويعشق أزياءه. وهكذا، بات الحصول على وظيفة وشقة في الغرب حلما على وشك التّحقّق لكثير من الشباب.

لم تكن المخاطر لتثني هؤلاء الشباب عن ملاحقة تحقيق هذا الحلم. فمع نهاية تسعينيات القرن الماضي، أخذت حكايات مرعبة تتردد عمّا يحدث للفتيات اللواتي هاجرن صوب الغرب. وبالرغم من التحذيرات، إلا أن أحلام الهجرة إلى الغرب لم تتوقف. وقد كشفت دراسة أجريت في أوكرانيا في نهاية تسعينيات القرن العشرين أن ثلاثا من بين أربع فتيات تتراوح أعمارهن بين 10—19 سنة أبدين رغبة قوية في الهجرة إلى الخارج[2]. وهناك بعض الفتيات اللواتي يسحرهن بريق الأزياء الحديثة، في حين تتمنى أخريات أن يكنّ المنقذات لعائلاتهن. ومهما كان هذا الإغراء، فإن عصابات الاتّجار بالبشر تستخدمه لخداع هؤلاء الفتيات وإيقاعهن في المصيدة.

ناديا؛ الخديعة

عندما وصلت إلى شقة كاترينا، دهشت ناديا لوجود ست بنات غيرها مع حقائبهن. كانت تعتقد أنها ستسافر مع كاترينا لوحدها.

لم تكلف كاترينا نفسها عناء شرح الظروف. وبعد ترحيب سريع، سألتْ ناديا: لقد أحضرت جواز سفرك، أليس كذلك؟

openkandil.com

هزت ناديا رأسها وأخرجت جواز السفر من حقيبتها، فقالت لها كاترينا: عظيم! أعطني إياه وسوف أعطيه لدليل حتى لا يضيع.

بعدما سلمتها الجواز، أسرعت كاترينا إلى رجل متوسط العمر كان يذرع الشقة جيئة وذهابا، ثم تبادلت معه حديثًا قصيرًا، في حين كانت عيناه تحملقان على ناديا، ثم أعطى ناديا ما بدا أنه حزمة نقود. انزعجت ناديا من نظرات الرجل، فاستدارات لتنظر إلى البنات الأخريات، فقّدرت أنها تكبرهن بخمس أو ست سنوات على الأقل، ولم يكن بينهن من بلغت الثامنة عشرة من العمر بعد.

اقتربت منها إحدى البنات، وسألتها بصوت ينمّ عن القلق: هل تعرفين إلى أين نحن ذاهبات؟

لقد وجدت لي كاترينا وظيفة في مطعم في إيطاليا. قالت ناديا ذلك كحقيقة مسلّم بها.

نعم. لقد قالت لنا ذلك أيضًا، أجابت الفتاة، ولكني كنت أسأل إن كنت تعرفين بالضبط المكان الذي سنذهب إليه في إيطاليا.

قبل أن تتمكن ناديا من الإجابة، تكلم الرجل الذي قالت عنه كاترينا إنه الدليل، وقال: سوف نغادر بعد ثوانٍ قليلة. توقف قليلا، ثم استأنف حديثه: يوجد في الخارج ثلاث سيارات في انتظارنا. سوف أحدّد لكل واحدة السيارة التي ستركبها. لا تقلقن بخصوص السيارة التي ستركبينها؛ فوجهتنا جميعنا واحدة.

حملت كاترينا حقيبتها، وانطلقت خارج الشقة. تبعتها ناديا، وجلست في المقعد الخلفي للسيارة المخصصة لها بجانب فتاة لم تقابلها من قبل. أدار السائق محرك السيارة، وانطلقت سيارة الدليل في المقدمة.

ظلـت السيارات تسير متتابعة لعدة ساعات، فـي الوقت الذي التزمت فيه ناديـا بالصمـت دون أن تنبس ببنت شفـة. أمضت الوقت وهـي تفكر في ابنها. وناجـت نفسهـا: ألم يكن الأجدر بـي أن أظل في بيتي وأعتنـي بابني؟ لا يهم إن كنـت لا أستطيع شراء الأشياء التي تريدها له كلّها، لكن المشكلة هي المستقبل الذي ينتظره دون تعليم؟

عنـد اقترابهم من الحدود مـع رومانيا، توقفت القافلة فجـأة: بدا لناديا أنهم قد ضلوا طريقهم، ولكنها رأت بعد عدة دقائق أضواء ثلاث سيارات تتقدم ببـطء من الاتجاه المقابل. توقفت السيارات فـي منتصف الطريق الذي توقفوا فيه. رأت ناديا الدليل ينزل ويذهب إلى السيارة الأولى، ويتحدث مع من فيها عبـر النافذة. بعد ذلك، عاد إلى سيارة ناديـا وفتح الباب الخلفي، وقال: هيّا يا بنات. احملن حقائبكن، سوف نبدل السيارات للمرحلة الثانية من الرحلة. عندما استقـرت ناديا في المقعد الجديد المخصص لها، نظـرت عبر الشباك، فرأت كاترينـا تجلس فـي المقعد الخلفي لإحدى السيارات التـي غادرتها البنات للتّو. شعرت ناديا بشيء مريب وتساءلت: لِمَ لا ترافقنا كاترينا؟

أنزلت ناديا زجاج شباكها، وأشارت بيدها لتجذب انتباه كاترينا. وعندما فشلت في ذلك، نادت على كاترينا التي تجاهلت النداء. وبعد دقيقة، كانت القافلة تعبر الحدود إلى رومانيا.

تهريب اليتامى

أصبحت دور الأيتام إحدى الصناعات القانونية القليلة المزدهرة في أوروبا الشرقية طوال العقدين الماضيين. فقد أدى انهيار العائلات إلى تخلي الآباء عن أبنائهم الذين وجدوا أنفسهم بلا مأوى ولا معيل.

obeikandl.com

ويمكـن أن نتخيل أثر الهجرة علـى العائلة في بلد مثل مولدوفا التي هاجر منهـا واحد مـن كل أربعة أشخاص فـي الفترة مـن 1991 — 2002[3]. ولم يعد مُستغربًـا أن يترك الآباء أبناءهم وراءهم عندما يغادرون البلاد. وهناك أطفال آخرون يفقدون آباءهم بسبب الإدمان على الكحول، أو الوفاة، أو الفقر المدقع.

ورغم انتشار دور الأيتام، إلا أن هناك حاجة إلى مزيد منها؛ فالدور الحالية مزدحمة فوق طاقتها، ولديها قائمة انتظار طويلة. وللتغلب على مشكلة الاكتظاظ، تلزم هذه الدور الأطفال على مغادرتها عندما يبلغون سن 17 من العمر. وهناك عدد قليل من هؤلاء الأطفال الذين يملكون نقودًا أو مهارات للحصول على عمل. ولذلك، فإن عصابات الاتّجار بالبشر تعرف نقطة ضعفهم، وتجدهم لقمة سائغة.

بـدأ تجار الرّقيـق بملاحقة حتى الأطفال داخـل دور الأيتام، ومما يؤسف لـه أنهم يجدون متواطئيـن معهم داخل هذه الدور، وهم مستعدون لخيانة هؤلاء الأطفال وبيعهم بثمن مناسب. وتقول منظمات حقوق الإنسان إنه يجري بيع الأيتام فـي المنطقة، وتهريبهم عبر الحدود الدولية لاستخدامهم في الأفلام الإباحية. فعلـى سبيل المثال، فضحت وزارة الخارجية الأمريكية في تقريرها عن الاتّجار بالبشر عام 2003، مديري دور الأيتام في مولدوفا لبيعهم تجار الرّقيق معلومات شخصيـة عن الأطفال، وتسهيل اختطافهم في بعض الحالات . وقد وثّق التقرير حـالات مشابهة في رومانيـا؛ حيث هناك عدة دور أيتام متورطة في تسهيل جعل البنات يقعن ضحايا لشبكات عصابات الدعارة .[4]

تشيزاري لوديزيرتو؛ عدوى الحب

مثـل كثيرين غيره من سكان سان فوكا، يشهد إنزوا على الأسطورة بادري شيـزاري. يديـر إنزو واحدًا مـن أشهر مقاهي الرصيف فـي القرية. ففي ليالي الصيف الحارة من شهر أغسطس، وعندما يبدو أن إيطاليا قاطبة قد خرجت في

إجازة، تمتلئ الساحة المقابلة للمقهى بالباحثين عن تسلية موسيقية أو شراب بارد. أما البنات اللواتي يقمن على خدمة الزبائن، فيتحدثن اللغة الرومانية أو الروسية أو المولدوفية.

كانت عصابات الاتّجار بالبشر قد هرّبت هؤلاء البنات إلى سان فوكا تمهيدًا لنقلهن إلى مهمة أخرى، لكن بادري تشيزاري أنقذهن من هذا المصير.

يروي إنزو أنه ذهب إلى ملجأ «ملكة السلام» في يوم ماطر عاصف ليتطوع في إعداد وجبات الطعام للاجئين. وبينما هو منهمك في عمله، اندفعت مجموعة من الصبيان إلى داخل الملجأ، وهم يصيحون باهتياج بأنهم شاهدوا قاربًا صغيرًا ينقلب قبالة الشاطئ. ارتدى إنزو معطفه، ووصل إلى بوابة الملجأ الخارجية، في الوقت الذي وصل فيه بادري تشيزاري أيضًا. انطلق الرجلان في سيارة إنزو متجهين إلى الموقع الذي حدّده الأطفال.

اقشعر بدن إنزو وهو ينظر إلى البحر الهائج، فهو يعمل صياد سمك بعد انتهاء موسم الإجازات، ويعرف أن الأمواج العالية يمكن أن تلتهم أي قارب أو سفينة صغيرة.

ركن إنزو سيارته على جانب الطريق، ثم أخذ وبادري تشيزاري يركضان في اتجاهين متعاكسين على الشاطئ بحثًا عن ناجين. نثرت الرياح العاصفة مياه البحر أفقيًّا فحجبت عنهما الرؤية. بحثا طوال خمس دقائق دون جدوى، فبدأ إنزو يخشى أن يكون ركاب القارب قد غرقوا. وفجأة، سمع صوت بكاء عاليا يختلط بهدير البحر. للوهلة الأولى، ظن أنه صفير الريح. ولكن بعد أن أرهف السمع جيدا، تأكد أنه بكاء طفل.

أخذ الرجلان يعدوان في الاتجاهات كافة، ثم شاهدا حركة عند الشاطئ. لوّح إنزو إلى بادري تشيزاري بيديه، ثم أخذ يقفز فوق الصخور. وعندما أطل

على أسفل الجرف، وجد 25 لاجئًا عراقيًّا من الأعمار جميعها؛ نساء، ورجالاً كبارًا في السن، وأمهات شابات، وأولادا، وأطفالا رُضّعا – متكومين في صدع صخري، محاولين الاحتماء من الريح والمطر.

بـلا حراك، وقف إنزو على بعد ثلاثـة أمتار من اللاجئين، حائرا لا يدري ما يفعله، وخاصة أنه لا يتقن العربية. حملق اللاجئون فيه حيارى وقلقين؛ أعدوّ هو أم صديق؟

كسـر بادري تشيـزاري جدار الحيـرة والصمت، واندفع إلـى حيث تجمّع اللاجئـون، فخلع معطفه ولفه حـول الأطفال الصغار. تحـدث إليهم بالإيطاليّة التي يجهلونها، إلا أنهم أحسوا بدفق الحنان في نبراته.

أومأ لهم إلى الشاطئ، ثم بدأ يمشي، فتبعه الآخرون في صف واحد. وما إن وصلوا إلى الشارع العام حتى وجدوا مجموعة سيارات تابعة للملجأ بانتظارهم.

ولا يزال إنزو يتذكر هذه الحادثة حتى الآن، فهي وإن كانت مجرد يوم آخر في حيـاة بادري تشيزاري، إلا أنها كانت حدثًا خاصـة بالنسبة له؛ يحتفظ إنزو على أحد جدران المقهى بصورة بادري تشيزاري وهو يحتضن اثنين من أطفال إنزو بذراعيه. ولأنه تعلم منه الحب والحنان، فإن إنزو يساعد الفتيات المهرّبات في الحصول على عمل.

لقـد أثّر بادري تشيزاري في حياة كثيرين في سان فوكا، وبخاصة الفتيات الشابـات مـن ضحايا تجارة الجنـس اللواتي يعملن الآن فـي المطاعم، ومحال بيـع الفواكه والمخابز. وقد تزوجن من بعض سكان القرية، وأصبحن يسرن في الشوارع بكرامة.

ناديا: العبور

سارت قافلة السيارات لعدة ساعات داخل الأراضي الرومانية، قبل أن تتوقف خلف بيت ريفي قديم. ومع أنها كانت ترى أضواء قرية صغيرة في البعد، إلا أنها لم تستطع تحديد المكان الذي وقفت فيه السيارات.

طلب السائقون من الفتيات الدخول إلى البيت بسرعة، ثم أدخلوهن في غرفة خافتة الإضاءة وأوصدوا الباب عليهن. كان في الغرفة أيضًا ثلاث فتيات رومانيات يجلسن على مقاعد داكنة. وعندما فُتح الباب، وقفن بسرعة كأنما كنّ بانتظار شيء ما، لكنهن عدن وارتمين على المقاعد باستسلام عندما أُغلق الباب مرة أخرى.

هل يمكن أن تقولي لي أين نحن؟ سألت ناديا بنتًا من البنات ذات عينين زرقاوين وجمال أخّاذ.

أخشى أني أعرف، أجابت البنت.

ولكن، كم مضى عليكن هنا، سألت ناديا المتعطشة إلى المعلومات.

ربما أسبوعان، أجابت البنت، وكي أصدقك القول، فإني لا أعرف بالضبط.

أسبوعان؟ عقّبت ناديا باستغراب ولكن، هل شرح لكّن أحد ماذا يجري؟

إنهم يجدون صعوبة في تأمين تأشيرات دخول لنا، أجابت الفتاة الرومانية. كان ذلك هو التفسير الوحيد الذي تلقته ناديا لهذا الحجز في هذه الغرفة.

كان أحد الرجال يتولى إحضار وجبتين خفيفتين من الطعام لهن طوال اليوم. لكن ناديا كانت تصرخ بوجهه في كل مرة يحضر فيها صينية الطعام قائلة: لِمَ تحتجزوننا هنا؟ لكنه كان يتجاهل احتجاجها، ويشير إليها بالسكوت، ومن ثَمَّ يغادر الغرفة.

obeikandl.com

بعد سبعة أيام في الحجز، جاء إلى الغرفة رجل حسن الهندام، ومن ورائه ثلاثة مرافقين مرعبين رمقهن الرجل سريعًا ثم قال: لقد حصلنا على تأشيرات الدخـول، وسوف نغادر إلى صربيا. ومن هنـاك، سوف نضعكّن على متن حافلة تأخذكّـن إلى إيطاليا. لقد أعدّ لكّن صاحب العمـل مكانًا للسكن. وهكذا، يمكن أن تبدأن بجني المال فورًا.

بعـد سماع ما قاله الرجـل، ارتفعت معنويات ناديـا لأول مرة منذ مغادرة العاصمـة المولدوفية كيشيناو. اصطحبهـن المرافقون إلى خارج المنزل، حيث كانت سيارتان لونهما أبيض بانتظارهن.

انطلقت السيارتان ما إن ركبت الفتيات، وظلتا تسيران طوال اليوم في طرق جبلية ضيقة. وعند هبوط الليل، انحرفت السيارتان عن الطريق، ودخلتا إلى غابة كثيفة الأشجار، ثم طلب المرافقون من البنات النزول.

تحدث الرجل الأنيق عن تفاصيل جديدة في الخطة، يبدو أنها تجاهلها عن عمـد عندما تحدث إليهـن أول مرة. قال الرجل: لقد حصلنا لكنّ على تأشيرات دخول إلى إيطاليا للعمل هناك، ولكننا لم نحصل على تأشيرات لدخول صربيا. ولذلك، يجب أن تتسلّلن عبر الحدود تحت جنح الظلام.

أطلقت البنـات صيحات الاحتجاج. ولكن الرجل الأنيـق وضع حدًّا للبلبلة وقال: أنا آسف، هذه هي الطريقة الوحيدة لإيصالكن إلى الحافلة التي ستأخذكن إلى إيطاليا. ثم أخبرهن بأن السيارات ستكون بانتظارهن على الطرف الآخر من الحدود، وسوف يومض السّائقون أنوار سياراتهم كل دقيقتين إلى أن يصلن، ثم حذّرهن بأنهن قـد يقضين سنوات في السجن إذا ما أُلقي القبض عليهن. وأكد لهن أن الحياة في السجون الصربية لا تُطاق.

سـار الرجـال أمام البنات لمسافـة نصف ميل إلى أن وصلـوا إلى منطقة مكشوفـة، ثم جلس الجميع إلى أن رأوا أنوار السيارات تومض بين الأشجار على حافة جبلية مرتفعة. عندها، قال الرجل الأنيق: هيا انطلقن الآن، ولا تتوقفن عن الجري إلى أن تصلن إلى تلك الحافة.

تهريب البشر والعولمة

يستغل تجار الجنس أسوأ جوانب العولمة وأفضلها في آن واحد. فمنذ انطلاق موجة العولمة، روّج المدافعون عنها لسهولة عقد الصفقات عبر الحدود الوطنية من خلال أدوات التواصل المتقدمة ومرونة القوانين المصرفية. وبناء على نظريات العولمة، يمكن للمشاريع الافتراضية أن تعمل في أي مكان أو لا مكان، وأن تكشف عن نفسها في الوقت والمكان اللذّين تختارهما.

وقد استفادت عصابات الجريمة المنظمة من هذه الأدوات لإنشاء شبكات فاعلـة في الخارج. وبالرغـم من أن معظم عمليات تهريـب البشر تُدار من قبل مشغّلين محليين، إلا أنهم يتواصلون بسهولة مع تجار الجنس العالمية التي تسعى إلى ملء بيوت الدعارة، ونوادي التعرّي، وصالونات التدليك والرّقص الخليع.

وأصبح بإمكان صاحب أحد النـوادي في شيكاغو الاتصال هاتفيًّا، وطلب ثلاث فاتنات من أوروبا الشرقية. وبعد أسبوعين، سوف تتوافد فتيات سلافيات يرقصن في ناديه.

ويقـول منتقدو العولمـة إن رأس المال يتدفق إلى حيـث يستطيع استغلال العمالة الرخيصة. وسوف يغادر أصحاب رأس المال مكانًا ما بسرعة عند حدوث إحـدى الحالتين التاليتيـن: (1). إذا أخذت الأصول التي يستغلها في التآكل. أو (2). إذا أمكن الحصول على هذه الأصول بتكلفة أرخص في أسواق أخرى؛ وتلك هي تجارة الجنس.

لقد لوحظ في العقود الثلاثة الماضية أن المنطقة الرئيسة لاصطياد الرّقيق الأبيض قد انتقلت بسرعة من إحدى مناطق الركود الاقتصادي إلى منطقة أخرى أكثر انتعاشا. كانت عصابات الاتّجار بالبشر في سبعينيات القرن العشرين تستهدف البنات من جنوب شرق آسيا؛ من تايلاند وفيتنام تحديدًا والفلبين. وبعد عشر سنوات من الاستثمار في آسيا، نقلت عصابات الاتّجار بالبشر نشاطها إلى إفريقية، حيث أخذت الفتيات من نيجيريا وأوغندا تغرق أسواق الجنس العالمية. وفي منتصف ثمانينيات القرن الماضي وبداية التسعينيات، أصبحت الفتيات من أمريكا اللاتينية؛ البرازيل، المكسيك، الدومنيك، وأمريكا الوسطى (خاصة السلفادور وغواتيمالا) السلعة المفضلة. وتنتهز عصابات الاتّجار بالبشر الأوضاع الاقتصادية المتردية للمجتمعات الفقيرة لممارسة أنشطتها. فحتى ثمانينيات القرن الماضي، كان من النادر تهريب الفتيات من دول أوروبا الشرقية. ولكن الوضع تدهور بصورة مذهلة في أعقاب انهيار الاتحاد السوفيتي. وقدّرت المنظمة الدولية للهجرة أن نحو ربع مليون فتاة قد جرى تهريبهن داخل أوروبا وحدها من الشرق إلى الغرب منذ عام 1991[5].

وحتى في داخل أوروبا الشرقية نفسها، فإن مناطق التهريب الرئيسة تتغير بسرعة سعيًا وراء اغتنام الفرص. ففي عام 1992، جاءت معظم ضحايا التهريب من بولندا، ورومانيا، وهنغاريا، وتشيكو سلوفاكيا، وعندما نضبت الموارد في هذه الأسواق، نقل تجار الرّقيق نشاطهم إلى روسيا وأوكرانيا وبلغاريا ومولدافيا. ومع بداية القرن الحادي والعشرين، انتقلت منطقة الاتّجار بالبشر إلى آسيا الوسطى؛ أوزبكستان، كازخستان، قرغيزستان، وجورجيا.

أما تحديد الدول التي ستُرسل إليها أولئك النسوة، فأمر خاضع لاعتبارات العرض والجدوى الاقتصادية. فمثلا، كانت معدلات الاتّجار بالبشر منخفضة في إسرائيل في الماضي إلى حد ما، لكن فريق العمل الخاص بمراقبة الاتّجار

بالبشر لاحظ أن عصابات الجريمة المنظمة بدأت منذ عام 2008 باستقدام ما يقارب خمسة آلاف امرأة من دول البلقان سنويًّا لغايات البِغاء[6].

وهكذا، ترتحل هذه العصابات إلى حيث تحقق أكبر قدر من الأرباح. وفي إشارتها إلى ما أسمته «الفعالية عديمة الرحمة» لعصابات الاتّجار بالبشر، قالت مفوضة الاتحاد الأوروبي للشؤون الاجتماعية آنا دياماتوبولو في خطاب عاطفي في بروكسيل: إنهم خبراء في عملهم، إنهم يعرفون تقلبات السوق، ويستجيبون لها بسرعة لا تضاهيه حتى أكبر الشركات المنافسة. ولا يعلو على خبرتهم وقدراتهم في استغلال السوق سوى تجاهلهم لحياة البشر. البشرية بنظرهم سلعة تُباع وتُشترى وتُستأجر كأي سلعة أخرى، وما يعنيهم في كل هذا هو الربح؛ الربح فقط.[7]

وكشف تقرير أصدرته المفوضية الأوروبية لعام 2009 مدى الانتشار الفيروسي لجرائم الاتّجار بالبشر. وأورد التقرير أحدث إحصائيات منظمة العمل الدولية التي ذكرت أن عدة مئات الآلاف من الأفراد يجري تهريبهم من أوروبا سنويًّا. وتمثل نسبة الضحايا لأغراض الدعارة 23%، في حين يُستغل ما نسبته 32% من البضاعة (الفتيات) في الأعمال القسرية وأعمال السخرة. وتمثل النساء والفتيات 98% من مجموع ضحايا الاتّجار بالبشر لأغراض الزنا. وما يثير القلق في هذا التقرير هو أن الاتّجار بالبشر في أوروبا قد تجاوز تهريب المخدرات[8].

ناديا؛ سوق المواشي

عبرت الفتيات الحدود عدوا بأقصى سرعة ممكنة. كان الليل دامسًا، ولم تكن إحداهن تتبيّن موطئي قدميها. لذلك، كنّ يدسن على الصخور الناتئة وشجيرات العليّق بأشواكها المسنونة. وعندما وصلن التلة، كانت كل واحدة منهن

تقريبًـا قد فقدت فردة حـذاء، وكنّ يعانين من الجروح والرضوض في أقدامهن وسيقانهن.

بعـد وصولهـن إلى مكان وقـوف السيـارات، أصبحن الآن داخـل صربيا. انحشرن في ثلاث سيارات أخذت تسير بهن في طرقات جبلية وعرة، بدت أن لا نهاية لها. وأخيرًا، وصلت السيارات إلى بيت حجري معزول في وسط غابة نائية. وعند دخول البيت، وجدن فيه مزيدًا من البنات المهّربات. كنّ أيضًا يعانين من الجـروح والرضوض. وقد استلقين على الأرض لإراحـة أجسادهن المتبعة على الحيطـان. وما أن اجتمعت القادمات الجدد والقدامى حتى جاءت امرأة شقراء الجدائل، جميلة، تحدثت إليهن بلغة روسية سليمة. أبدت المرآة اهتمامًا بحالتهن، وأمرت بإحضار ماء ساخن ومناشف لتتمكن الفتيات من تنظيف جروحهن.

بعد ذلك، وزعتهن المرأة إلى مجموعات من خمس أو ست بنات، وأخذتهن إلى غرف النوم في الدور العلوي. وحيث كانت الساعة قد تجاوزت منتصف الليل، أمرتهن بأخذ قسط من الراحة لأن أمامهن يومًا طويلا غدًا.

نامت الفتيات المنهكات حتى ظهر اليوم التالي تقريبًا، ووجدن وجبة إفطار جاهـزة بانتظارهن، فالتهمن كل ما قدّم لهن. كانت تلـك الوجبة الوحيدة التي تناولنها منذ يومين.

عادت البنات إلى غرفهن، واستلقين على الأسرّة، وأخذن يتبادلن حكايات هروبهن. كانـت الفتاة الرومانية ذات العينين الزرقاويـن التي التقتها ناديا في آخـر محطة توقّـف زميلتها في الغرفـة. قصّت الفتاتان حكايـة رحلة كلّ منهما من أوكرانيا، وأخبرتهـن الفتاة الخامسة عن مسيرتها من بلغاريا. وكان الشيء المشترك بينهن أن المهرِّبين وعدوهن بوظائف في إيطاليا.

قطعت عليهن المرأة، شقراء الجدائل، خلوتهن عندما فتحت الباب، وقالت: حسنًا يا بنات. أريدكن أن تقدّمن لي أفضل عرض لديكن. في قاعة الانتظار في الدور الأرضي، مجموعة من الرجال المهّمين جاؤوا ليُقيِّموكن. سننزل كلنا إلى الأسفل، ولكن عليكن خلع قمصانكن قبل الدخول.

في بداية الأمر، ظنّت ناديا أنها لم تفهم ما قالته المرأة بالروسية، فسألتها وهي تتصنّع الهدوء: عفوًا! ما الذي علينا فعله؟

خلع ملابسكن حتى الخصر، وإبراز نهودكن، قالت المرأة بطريقة طبيعية، وكأنما تطلب منهن خلع أحذيتهن والسير حافيات.

أنت تمزحين، أليس كذلك؟ ردّت ناديا وهي لا تصدّق ما تسمع.

لا تخافي! لن يحدث لك شيء، قالت المرأة مؤكّدة. إنه مجرد فحص عادي، فقد أرسل أصحاب العمل في إيطاليا هؤلاء الرجال ليتأكدوا من أنكن بصحة جيدة.

لاحظت المرأة نظرات الدهشة في عيون الفتيات، فأضافت: أحيانًا ما يقوم المهّربون بضرب من يهرّبوهن لدرجة لا يتمكّنّ فيها من العمل. لذا، نريد أن نثبت لهم أنكن سليمات، وأن حالتكن الصحيّة جيدة.

بالرغم من شكوكها، إلا أن ناديا وافقت على مضض على الاشتراك في العرض. هبطت مجموعتها الدرجات المؤدية إلى الأسفل، ثم توقفت أمام باب قاعة الانتظار، ثم خلعن ملابسهن. أمّا المرأة الروسية فكانت تشجعهن وتقول: حسنًا، هذا جيد، هذا جيد، هذا كل شيء. نحن جاهزات الآن، فدعونا ندخل.

عندما دخلت، شاهدت البنات عشرة رجال أو أكثر يجلسون مُتحلِّقين. طلبت المرأة من كل واحدة من الفتيات التقدم إلى الأمام، وذِكْر اسمها، والدوران في

openkandil.com

حلقـة كاملـة. تفحصهن الرجال باهتمام وكأنما كانـوا يعاينون أغنامًا في سوق المواشي.

بعـد الانتهاء من هـذا الاستعراض المُهين، عـادت البنـات إلى غرفهن للاستراحـة. بعد نحو ساعـة، فتحت المرأة الروسية بـاب الغرفة، ونادت ناديا والبنـت الرومانية صاحبة العينين الزرقاوين: سوف تغـادران في سيارتكما في خمس دقائق، قالت ذلك باقتضاب.

أعدت الفتاتان حقيبتيهما بسرعة، وتمنتا لزميلاتهما حظًّا سعيدًا، وهبطتا الدرج بسرعة. وعند نهايته، كان بانتظارهما رجل نحيف أسود الشعر. قال لهما بلغة روسية ركيكة: أنتما الآن تعملان عندي سوف تأتيان معي الآن. سار أمامهما إلى حيث كانت سيـارة بانتظارهما، وأشار إلى المقعد الخلفي، وخاطب السائق بلغة اعتقدت ناديا أنها الصربية.

استغرقـت الرحلة إلى بلغراد نحو ساعتيـن. وضعهما السائق في شقة في منطقة سكنية، وقال بلغة روسية وركيكة أيضا: انتظرا هنا، سأعود بعد دقائق قليلة.

بعـد نصف ساعة، عاد السائق بصحبة رجلين ضخمين يرتديان معطفين جلديين، وأخذا ينظران إلى الفتاتين بشهوة وهما يتحدثان بلهجة صربية ثقيلة. وعندما بدا أنهما توصلا إلى اتفاق ما، قال السائق: حسنًا، أنتما تعملان الآن.

ماذا تعني؟ سألت ناديا بارتباك. أجابها الرجل غاضبا: لقد كلفتماني مالا كثيرًا. عليكما ممارسة الفاحشة مع هذين الرجلين: تراجعت الفتاتان قليلا إلى الوراء، ثم قالت ناديا بحزم: مستحيل! نحن لسنا كما تعتقد. وفي محاولة يائسة للخروج من هذا المأزق، قدّمت للرجل خيارًا آخر: سوف نعمل لديك في المطعم بأقصى ما نستطيع، ولكن لا يمكن أن نمارس هذا النوع من العمل.

لـم يكن الرجل على استعداد للدخول فـي مفاوضات. أدخل يده إلى جيبه وأخرج منها أداة لم تعرف ناديا ما هي إلا بعد أن ضغط عليها، فلمع النصل من الغمد، ثم أمسكها من شعرها ووضع الشفرة على حنجرتها، وهدّدها قائلا: عليك أن تمتّعي هذين الرجلين، وإلا سأجز عنقك.

أخـذت ناديـا وزميلتها ترتعشـان رعبا، ثـم قادهما الرجل إلـى غرفتين منفصلتيـن حيث اغتصبهما الرجلان البدينان. تكـرر هذا المشهد في الأشهر التاليـة مرات لا تحصى. مجرد أربع كلمات بسيطـة: حسنًا، أنتما تعملان الآن، حوّلت حياة ناديا إلى جحيم.

عصابات الجريمة المنظمة الروسية

لا يمكـن لأي نشاط غير قانوني، واسع الانتشـار، ومدر للربح، مثل تجارة الجنسـ في أوروبا الشرقيـة أن يتم دون آلة الجريمة المنظمـة. أما كيفية عمل هـذه العصابات، فما يزال لغزًا حتى الآن؛ لأنها تعمل ما بوسعها لإبقاء أنشطتها وطريقة عملها في سرية تامة.

ولكن، مـن الواضح أن المافيا الروسية تتـرك بصماتها على أوجه تجارة الجنس في أوروبا الشرقية جميعها، وهي تتغلغل في آلاف المنظمات، بما في ذلك التجارة القانونية. ولا ينحصر تأثير عصابات الجريمة الروسية في المنطقة، بل يتجاوزهـا إلى أبعد من ذلك؛ فهي تسيطر على تجارة الجنس في إسرائيل، وفي أجـزاء كثيرة من أوروبـا الغربية، إضافة إلى وجود قوي فـي الولايات المتحدة، وكندا، وجنوب شرق آسيا.

وتكمـن أبـرز جوانب قوة المافيـا الروسية في قدرتها علـى بناء تحالفات مربحة، فهي على سبيل المثال، تنسّق عن كثب مع العصابات المستقلة في ألبانيا وإيطاليا لنقل الفتيات إلى أوروبا الغربية. وهي تلجأ إلى هذا الأسلوب لأن ممارسة

عمليات التهريب في هذين البلدين سوف تكون مكلفة جدًّا وصعبة أيضًا، ناهيك عن عمليات الابتزاز من مسؤولين حكوميين وضباط شرطة فاسدين. ولهذا، فإن عصابات الجريمة الروسية تتعاقد مع جهات خارجية على تكلفة توزيع الإنتاج. وبناء على هذا الاتفاق، تحصل كل حلقة في هذه السلسلة على حصتها من العائدات، بعد إدراكها أن العمل مع الآخرين يدرّ عليها ربحًا أكبر بدلا من العمل منفردة. كما تشتهر المافيا الروسية باستخدام العنف المفرط عندما تشعر أنها مهددة، أو في حال خيانتها. وإذا ما أضفنا عاملي الترهيب والتخويف إلى شبكاتها السرية الفعّالة، فإنها بذلك تصبح عدوًا مخيفًا لمناهضي تجارة الرّقيق في أوروبا الشرقية.

تشيزاري لوديزرتو؛ منطقة الخطر

لا يتحرك بادري تشيزاري بمفرده، بل يتبعه فريق حماية شخصية أينما ذهب بعد أن قررت الحكومة الإيطالية توفير حماية دائمة له على مدار الساعة وهو داخل البلاد. كما يتمتع بالحماية ذاتها عندما يذهب إلى العاصمة المولدوفية كيشيناو، بأمر من الرئيس المولدوفي.

ولا ينطلق الخوف على سلامته من شكوك لا أساس لها، بل لأن كثيرًا من عصابات المافيا تتوعده بالقتل، نظرًا للخسارة التي تتعرض لها جراء مناهضته لتهريب الرّقيق الأبيض.

في مطلع عام 2001، جاء اثنان من القتلة المأجورين ليحذّراه، وإلاّ فعليه أن يتوقع حدثًا خطيرًا، لكنه لم يكترث بهذا التهديد.

حدث ذلك في عصر أحد الأيام عندما كان يسير على الشاطئ المقابل لملجأ «ملكة السلام» كان عضوا المافيا في انتظاره. لم يحاولا حتى لباس أقنعة لإخفاء شخصيتهما. استوقفاه وطلبا إليه بهدوء أن يرافقهما إلى أحد البساتين

القريبة. كان أحدهما يحمل مسدسًا يتدلّى من حزامه علنًا. لم يكن أمام بادري تشيزاري أي خيار آخر سوى السير معهما.

عندمـا دخلوا بين الأشجار، أفصح الرجلان عن مهمتهما، وقال أحدهما: بادري، أنت في مشكلة عويصة. إن رئيسنا يريدك أن تعلم أنه يكره سرقة ممتلكاته.

دافـع عن نفسـه قائلا: أنتما تعرفان أني لا آخـذ شيئًا يعود لشخص آخر، ولا حقّ لي فيه.

لا تتذاكى يا بادري. ردّ عليه أحدهما بلغة إيطالية سليمة. إذا أخذت واحدة من بناتنا وآويتها عندك، سوف لن تعيش لتروي حكايتك.

في تلك الأثناء، شعر حراس الملجأ بالقلق لأنه تغيب لمدة أطول من المدة المعتادة، فبدؤوا عملية بحث محمومة، وصاروا ينادون عليه. عندما سمع القاتلان المأجوران النداءات، أسرعا بالابتعاد عن المكان، فهرب بادري منهما.

يحكي باردي هذه القصة كما لو كان يروي حبكة فلم سينمائيّ. وعندما سئل عـن بساطة ردة فعله مع هذه القضيـة، أجاب: إن أي شيء يمكن أن يفعله هؤلاء القتلة بي لا يقارن بالمعاناة التي مرت بها هؤلاء البنات المهرّبات.

وبعـد أن فشلت العصابات في إخافته وثنيه عـن تأدية رسالته، لجأت إلى تشويـه سمعته؛ حيث تقـدم عدد من الفتيات من نزيلات الملجـأ سابقًا بشكوى رسميـة ضده، مطالبات بتعويض عـن الأذى النفسي الذي ألحقه بهن نظرًا لأنه حـوّل الملجأ إلى سجن، وحدّد تحركاتهن. وبالمقابل، تقدّم العاملون في الملجأ إلـى الشهادة لصالح بادري تشيزاري، لاقتناعهم بأن عصابات المافيا هي التي ضغطـت على أولئك الفتيات لرفع قضية ضـده. كما تراجعت إحدى المشتكيات عن إفادتها بعد أن حاصرها القاضي بأسئلته. أمّا بادري، فلم يحاول الدفاع عن نفسـه. وعندما سئل عن هذه الاتهامات، هز كتفيه بلا مبالاة، وقال: أستطيع أن

أقول أنني لست قديسًا، كما أنني لست مجرمًا. وما عدا ذلك فإن عملي يتحدث عن نفسه.

الجهود السياسية للحد من الاتّجار بالبشر

حظيت تجارة الرّقيق الأبيض باهتمام قادة العالم طوال أكثر من قرن؛ ففي عام 1904، صادقت اثنتا عشرة دولة، من ضمنها الولايات المتحدة، على الاتفاقية الدولية لقمع الاتّجار بالرّقيق الأبيض. وقد أعدت الاتفاقية ردًّا على اختطاف الفتيات لأغراض الاستغلال الجنسي في أوروبا وآسيا، وهي التي تحث الحكومات على منع التفويض باستخدام النساء والبنات لغايات غير أخلاقية في الخارج.

كما تبنّت عصبة الأمم في أعقاب الحرب العالمية الأولى وثيقة ضد العبودية مساندة لاتفاقية 1904، لكنها أضافت الأطفال إلى قائمة المحظورات. كما استبدلت المصطلح المتداول حاليًّا وهو الاتّجار بالنساء والأطفال بمصطلح تجارة الرّقيق الأبيض .

وفي عام 1949، نشطت الجمعية العامة للأمم المتحدة من أجل وضع إطار عمل قانوني لحظر الاتّجار بالبشر. عرفت الوثيقة رسميًّا باتفاقية قمع الاتّجار بالأشخاص واستغلال دعارة الآخرين، وقالت إن استغلال النساء والأطفال لغايات شيوع الفاحشة يعدّ انتهاكًا لحقوق الإنسان. كما دعت الاتفاقية الحكومات إلى تبني الإجراءات الكفيلة بمحاكمة أي شخص يثبت استغلاله لفرد آخر، أو يدير مشروعًا تجاريًّا من هذا النشاط ينتفع به.

وبناء على هذه الاتفاقية، فإن أي عقد باتفاق شخصي سوف يُعامل على أساس أنه خيار حرّ، ولكنها رأت في الوقت ذاته أن البغاء لا يليق بكرامة الإنسان، وحثّت الدول على تعزيز التوعية بين الناس، وتقديم المساعدة المادية لإقناع الأفراد بعدم بيع أجسادهم في سوق البغاء. ولسوء الحظ أن الدول التي صادقت

علـى هذه الاتفاقية كانـت أقل من عدد الدول الأعضاء فـي الأمم المتحدة (72 إلى 185).

أمّا اليوم، وابتداء من عام 2009، هناك دولة واحدة فقط؛ أستونيا، من بين 39 دولة أوروبية لا يوجد فيها قوانين ضد جريمة الاتّجار بالبشر[9].

وقد فسّرت الولايات المتحدة هذه الاتفاقية بطريقة ضيقة؛ إذ إن الولايات جميعهـا، باستثناء ولاية نيفادا، تجّرم البغـاء، وتجعل الأطراف جميعها عرضة للمحاكمـة؛ البغايا، والزبائن، والمهرّبين والمستثمرين. وعلى أرض الواقع، فإن النظـام القانونـي الأمريكي قد عالج جانـب العرض في المعادلـة (المومسات وأصحاب بيوت الدعارة) بشكل صارم أكثر من معالجة جانب الطلب (الباحثون عن المتعة).

وبدلا من محاولة حظر تجارة الجنس، فإن دول أوروبا الغربية تبذل جهدًا مشتـركًا لتنظيـم هذه التجارة، ولا تزال الساحة الأوروبيـة تشهد نقاشات حادة حول أفضل السياسات لتحقيق الهدف وانعكاسات هذه السياسات.

فهولندا، مثلا، عُرفت تاريخيًّـا بتساهلها تجاه تجارة الجنس، ولم يتوقف الأمـر عنـد هذا الحد، بل خطت خطوة أخرى في أكتوبـر 2000 بإضفاء الصفة الشرعية على البغاء. وتبعتها الحكومة الألمانية في إجراء مماثل بعد شهرين.

ويبرّر المُشرِّعون في هاتين الدولتين هذه الخطة بالقول إن الاستغلال يزدهر في البيئات غير القانونية. فإذا كان لا مناص من وجود البغاء في حياتنا دائمًا – وهذا ما يفترضه المشرِّعون في ألمانيا وهولندا – فإن تجريمه سوف يوجد سوقا سوداء، تضـع قوانينها عصابات الجريمة المنظمة. ويدعم هذا المنطق حقيقة أن 70% من أنشطة البغاء في الولايات المتحدة مرتبطة بالجريمة المنظمة[10].

وتُمنح البغايا في ألمانيا وهولندا الحماية القانونية من الاستغلال التجاري، ويستفدن من مزايا الخدمة الاجتماعية أيضا. ولكن القوانين في هاتين الدولتين لا تشمل مواطني الدول غير الأعضاء في الاتحاد الأوروبي. ولخيبة أمل المشرّعين، فقد انتشرت تجارة جنس غير مشروعة في كلا البلدين؛ حيث استنتج استبيان أُجري في عام 2003 أن النساء الأجنبيات يمثلن 65% من سوق الجنس في هولندا و 50% من السوق في ألمانيا[11].

ويجادل معظم مناهضي الرق بأن إضفاء الشرعية على البغاء يشكل خطرًا على القبول الاجتماعي العريض لبيوت الدعارة لغايات الترفيه الجنسي. وبدوره، سيؤدي مثل هذا النوع من البيئة الثقافية إلى زيادة الطلب على الفتيات الصغيرات، وهذا ما سيوفره تجار الرقيق الأبيض. وعليه، فهناك حاجة إلى إجراء مزيد من الدراسات لتحديد ما إذا كان حظر البغاء أو تشريعه سوف يؤدي إلى ارتفاع مستويات تجارة الجنس في أي دولة من الدول. وعلى أقل تقدير، سوف يؤدي تشريع تجارة الجنس إلى استحالة محاكمة المهرِّبين، والقوّادين، ومالكي بيوت الدعارة. فهؤلاء يمكنهم الدفاع عن أنفسهم بالقول إن الفتاة نفسها وافقت على العمل مومسًا، وهذا ما يجعل من الصعب على الفتاة إثبات العكس. وفي حال صور الإكراه اللاحقة، سوف تكون تحت غطاء قانوني.

أمّا السويد فقد اتخذت مسارًا فريدا عن بقية الدول؛ إذ أصبحت في عام 1999 أول دولة في العالم تحاكم من يشتري الجنس، وتُعامل المرأة على أنها ضحية. كما اعتمدت الحكومة برنامج توعية واسعًا لتشجيع المومسات على طريقة كسب عيشهن. ويصل حدّ العقوبة القصوى لأي متاجر بالجنس إلى ستة أشهر سجنا. وقد وُجّهت الاتهامات إلى 750 شخصا في السنوات الخمس الأولى منذ إقرار القانون، أدين الثلثان منهم. ونتيجة لذلك، انخفضت دعارة الشوارع في السويد إلى حد كبير، وكذلك الحال مع تدفق النساء المُهرّبات لغايات جنسية[12].

وتقـول السويديـة ماريـان أريكسـون، عضو البرلمـان الأوروبـي، وإحدى المدافعـات عن قانون تجريم الاتّجـار بالبشر: ما يميزنا عـن هولندا وألمانيا، هـو أننا نربط تجـارة العبيد بالبغاء والإباحية. صحيـح أن كل واحد في الاتحاد الأوروبي يعارض الاتّجار بالبشر، ولكننا نعرف أن 90% من هذه التجارة يرتبط بالاستغلال الجنسي.[13]

ناديا؛ المرور عبر الجحيم

عندما اعتقدت ناديا أنها لن تخرج من صربيا أبدا، ظهرت في حياتها مرة أخرى تلك المرأة الروسية ذات الضفائر الذهبية.

عنـد التقائهما، قالت المرأة الروسيـة: أنت في وضع مزرٍ، هؤلاء الصرب خنازيـر بحق. وأضافت، وهي تمد يدها لتلمس وجه الفتاة الرومانية: هيّا نخرج من هنا، يبدو أن كليكما بحاجة إلى وجبة ساخنة.

وبالرغم من أن ناديا قد خُدعت من الحنان الزائف لهذه المرأة سابقا، إلا أنها لم تمنع نفسها من الترحيب بهذه المشاعر الإنسانية.

وبعـد أن جلسن في مطعم قريب، قالت لهما المرأة الروسية: لقد استغرق الأمـر بعض الوقت، ولكنني نجحت أخيـرًا في الحصول لكما على تأشيرة للعمل فـي إيطاليا. وسوف تعملان قريبًا في مقهى فـي روما. ثم أخرجت المرأة جواز سفر ناديا، وأرتهما الخاتم الرسمي عليه دليلا على صدق قولها، وأضافت: سوف تكونـان في مأمن الآن إذا ما طلبت الشرطـة الإيطالية أوراقكما الثبوتية. سوف تغادران في غضون يومين.

منذ تلك اللحظة، أخذت ناديا تعدّ الدقائق بانتظار الرحيل، استمر الرجل الصربـي في إحضار الزبائن من طالبي المتعة الجنسية. ومع أنها كانت شغوفة في معرفة ترتيبات العمل بينه وبين المرأة الروسية، إلا أنها كانت تخافه، وفضلت

عـدم سؤاله. وعندما غادرت الشقـة لآخر مرة بعد يومين، صبت على الشقة كل ما اختزنته ذاكرتها من اللعنات.

نقلهمـا رجلان روسيـان ضخمان مع ثلاث بنات مـن أوكرانيا، وتوقفا في الجبـل الأسود لمدة يومين في مكان سمّـاه الروسيان «البيت الآمن». وفي عشية اليوم الثالث، تركوا هذا البيت، ووصلوا بعد مدة وجيزة إلى حافة بحيرة كبيرة. أوقف السائق السيارة، لكنه ترك الأضواء الأمامية منعكسة على سطح الماء. لم يمضِ وقت طويل حتى ظهر قارب مطاطي صغير. سـار الروسيان أمامهن على حافة البحيرة، ثم طلبا منهن القفز إلى القارب.

سألت ناديا أحدهما فيما إذا كان القارب سيأخذهن إلى إيطاليا، فأجاب: كلا، سـوف تذهبن إلـى ألبانيا أولا. تملّك ناديا حزن شديد، وتساءلت: أما لهذا العذاب من نهاية! تركهن الروسيان في صحبة الربّان الألماني الذي أدار المحرك بأقصى سرعة، وظل يبحر بهن لأكثر من ساعة. كان الرّبان يتقن الروسية، وحاول أن يفتح حديثًـا معهن، إلا أنهن لم يكنّ متحمسات لأي حديث، وكانت إجاباتهن مختصرة.

بعد ذلك، لاحت أمامهن مجموعة من الأضواء على مسافة بعيدة. قال لهن الألباني: سنذهب إلـى ما وراء الأضواء، ثم أطفأ المحرك فجأة. اعتقدت ناديا في بادئ الأمر أن الوقود قد نفد، لكن الرجل قال لهن: سوف اختار واحدة منكن لأضاجعها، وإذا ما رفضت، فسوف أغرقكن في هذا المكان.

تبادلـت البنات نظرات خائفة. لا أتقـن السباحة، قالت بنت من العاصمة الأوكرانية كييف بصوت مُتهدّج، ثم أخذت البنات يعترفن واحدة تلو الأخرى أنهن عاجـزات عن السباحة في هذه الميـاه العميقة. وأخيرًا، قالت الرومانية بصوت كسيـر: لنعطي هذا الحقير ما يريده. وما إن قالـت ذلك حتى أمسكت بيد ناديا التي أمسكت بيد الفتاة التي تليها، وهكذا تشابكت أيديهن جميعًا.

استعدت البنات لعملية الاختيار. وبعد أن تفحص الرجل المجموعة، أشار إلى ناديا وقال: أنت، تعالي إلى هنا.

نظرت ناديا إلى زميلاتها بخوف. قالت لها البنت الأوكرانية بتوسل: أتوسل إليك أن تلبي رغبته، لا تخجلي، أنت تضحّين بذلك من أجلنا كلنا.

وقفت ناديا، ثم اتجهت صوبه، فسارع بانتزاع ملابسها واغتصابها على مرأى منهن. بعد الانتهاء من العملية، قال لها: لقد كنت رائعة. لو لم تتجاوبي جيدًا، كنت سأغرقك أنت وصديقاتك. ضحك بصوت عالٍ، ثم أدار المحرك.

وعندما أبحرن باتجاه الأراضي الألبانية، وجدن فريق ترحيب غير متوقع بانتظارهن. كانت مجموعة من الرجال المسلحين ببنادق آلية. وما أدهش ناديا أكثر هو أن بعض الرجال كانوا يرتدون زيًا رسميًّا. وبلغ منها الخوف مبلغه عندما نظرت إلى الشارع، ورأت سيارتين تحملان كلمة «شرطة». يا لسخرية القدر! فبعد كل هذه المعاناة، وبعدما أصبحن على مقربة من إيطاليا، يبدو أن المطاف سينتهي بها في سجن ألباني.

ألقى رجال الشرطة القبض عليهن، واقتادوهن إلى مدينة شكودر. ولكن ليس إلى مركز الشرطة، بل إلى منزل خاص، تبادلوا فيه اغتصاب الفتيات قبل مغادرة المكان.

فساد الشرطة

ربما يتبادر إلى ذهن القارئ هذا السؤال: لِمَ لا تقوم الشرطة بدورها في وقف تجارة الجنس؟ إن الجواب يكمن في حقيقة أن بعض رجال الشرطة يفتحون معابر الحدود أمام عصابات التهريب وحمايتهم من الاعتقال على أيدي رجال الشرطة الآخرين من ذوي الضمائر النقية، وإصدار التصاريح التي تمكّن هذه العصابات من مزاولة عملهم بطريقة قانونية، واعتقال الفتيات الهاربات

وإعادتهن إلى مالكيهن. وبعبارة أخرى، فإن عصابات الاتّجار بالبشر تعتمد على رجال الشرطة لمزاولة نشاطاتهم.

لقد حوّل الفساد العدالة العامة في دول الاتحاد السوفيتي سابقًا إلى أضحوكة؛ فقد أفادت معظم اللواتي جرى تهريبهن عبر ممرات البلقان بأنهن شاهدن ضابط شرطة واحدا على الأقل يتعاون مع تجار الرّقيق.

كما اعترفت فتيات كثيرات باغتصابهن من رجال الشرطة، زد على ذلك أنهم لم يكلّفوا أنفسهم عناء إخفاء هوّياتهم وهم يقومون بفعْلتهم الدنيئة تلك.

وقد أكد مكتب الديمقراطية وحقوق الإنسان والعمل التابع لوزارة الخارجية الأمريكية أن الموقع الاستراتيجي لألبانيا يسّهل عملية تهريب البنات الشابات من الشرق إلى الغرب.

وقال تقرير أعدّه المكتب إن رجال الشرطة متورطون بطريقة مباشرة أو غير مباشرة في هذه العمليات[14]. وانتقد التقرير وزارة الأمن العام الألبانية التي تشرف على نظام الشرطة. وعلى الرغم من الأدلة الواضحة على تورط رجال الشرطة في قضايا الاتّجار بالبشر، إلا أن الوزارة فشلت في اتخاذ أي إجراء عقابي ضد هؤلاء المتورطين. وعندما تتوافر الجرأة لدى جهات تنفيذ القانون على مواجهة المتاجرين بالبشر ومداهمتهم، تقوم الشرطة المحلية بإبلاغ المهربين بموعد الغارة المتوقعة.[15]

في ظل هذه الأوضاع، يمكنك أن تتصور كيف يكون شعور الضحية عندما تفتقد سلطة قانونية تقتص من الجلّاد! وقد ثبت أن ضباط الشرطة والمسؤولين الحكوميين لا يتغاضون عن الجريمة عند حدوثها فحسب، بل هم شركاء فيها. لذا، وبسبب عدم ثقة الناس في أوروبا الشرقية بالمسؤولين العموميين، فمن غير المحتمل التّقدّم بشكوى ضد منظمة وهمية اختطفت أحد أفراد عائلاتهم. وهذا

ما ينطبق على البنات من ضحايا تجارة الجنس؛ حيث إن الشرطة تعاملهن كما لو كنّ يستحققن صور سوء المعاملة جميعها التي يتعرضن لها.

ولا ينحصر تواطؤ سلطات تنفيذ القانون في تجارة الجنس على أوروبا الشرقية، بل هو ظاهرة منتشرة في العالم على نطاق واسع. وهذا أمر متوقع نظرًا للطبيعة العلنية لهذه التجارة؛ فعلى العكس من المخدرات والأسلحة التي تُهرّب وتباع بطريقة خفّية، فإن سلعة الجنس يجب أن تكون على مرأى المشتري. ولذلك، إذا كان زبائن المتعة يستطيعون العثور على المنتج المحرّم وغير القانوني معروضا علنًا في إحدى زوايا الشارع أو في إعلان مطبوع، فما بالك برجال الشرطة الذين يستطيعون العثور عليه بسهولة أيضًا. ولهذا، فإن حقيقة أنهم لا يفعلون شيئًا لمحاربة تجارة الجنس تؤكد اللامبالاة بالمشكلة، أو الجهل بمدى انتشارها، أو المردود المالي في استمرارها.

وبالرغم من ذلك، سوف يحتاج مناهضو تجارة الرّقيق إلى طلب مساعدة رجال الشرطة للحد من تجارة الجنس الآخذة في الانتشار. وإذا كان رجال الشرطة في أوروبا الشرقية – أو في أي مكان آخر في العالم– مصنفين على أنهم عناصر إجرامية، فإن حركة مناهضة العبودية لن تفلح في سعيها الإنساني. ومما لا شك فيه أن الفقراء والضعفاء لا يستطيعون وحدهم التصدّي للمجرمين المتنفّذين الذي يستخدمون الوسائل جميعها لزيادة أرباحهم. وفي ضوء هذا الواقع المرير، يجب على مناهضي تجارة الرّقيق الأبيض والاتّجار بالبشر إقامة تحالفات مع ضباط الشرطة الشرفاء، ودعم جهودهم لتعزيز حضورهم ومصداقيتهم محليًّا.

تشيزاري لوديزيرتو؛ البحث عن المنبع

يعمـل بادري تشيزاري مثـل أي واحد من حماة البيئـة المتحمسين الذين يعثرون على سمك مسموم عند مصب الجدول. ومثلما يفعل أنصار البيئة في تتبع سبب التسمم، فإنه يذهب إلى المنبع ويقضي على المصدر الذي يلوّث المياه.

أدرك بـادري تشيـزاري أن البنات المهّربات مـا إن يصلن إلى قرية سان فوكا باحثات عن ملجأ آمن، حتى يقعن فريسة لتجار الجنس. ولذلك، تتّبع مسار التهريب حتى أوروبا الشرقية، وعالج المشكلة من منشئها.

فـي عام 2003، بدأ بتقليص خدمـات اللاجئين، وأعاد ترتيب مهمة ملجأ «ملكة السلام» وذلك لأسباب كثيرة، منها النهاية السلمية لحرب البلقان، وتراجع تدفـق المهاجرين من تلك المنطقة. كمـا أن الوضع السياسي شبه المستقر في أفغانستـان ساعد أيضًا على تراجـع تدفق اللاجئين. وفي ضوء هذه المعطيات، أخذ بادري تشيزاري يركز اهتمامه على تهريب الفتيات لغايات الاتّجار بالجنس. وبناء على ذلك. تحوّل ملجأ «ملكة السلام» من أكبر مركز للاجئين في إيطاليا، إلى شبكة عالمية لمناهضة الاتّجار بالبشر.

لا يـزال الملجأ يشرف على برنامج إيواء متواضـع في سان فوكا. ويهدف العاملـون فـي الملجأ والبرنامـج إلى إيجاد حلـول دائمة حتى لا يملـن الفتيات المهرّبات إلى التواكل. بعد فترة نقاهة أولية، توضع الفتيات عند عائلات سليمات صحيًّـا، وعلى استعداد لرعايتهن. وتتلقى الفتيات الأجنبيات المساعدة لتحديد وضـع لجوئهم مع السلطات الحكومية فـي الحالات التي يكون فيها المهرِّبون قد احتفظوا بجوازات سفرهن معهم. ويمكن للفتيات تعلّم مهنة جديدة. وإذا كنّ في الأصـل يملكن مهارات خاصة، فإن العاملين في البرنامج يساعدوهن في العثور على وظيفة يمكن أن تمنحهن شعورًا بالكرامة والاستقلالية.

ويمكن مشاهدة بادري تشيـزاري باستمرار في أوروبا الغربية بعدما أنشأ مراكـز لملجأ ملكة السلام في مولدوفا ورومانيا لتنفيذ أنشطة واسعة في مجال مناهضة الاتّجار بالبشر. وعن ذلك يقول: ألدّ أعدائنا في مناهضة تجارة الجنس ثلاثة؛ الفقر، وطالبو المتعة الجنسية الذين يرفعون من الطلب، والمهرّبون. لذا، فإننـا نحث الخطى نحو إعداد البرامج التـي تقلّص من تأثير هؤلاء الأعداء في مصير الفتيات الصغيرات.

يعـدُّ الفقر العـدو الأشد والخفي من بيـن الأعداء الثلاثة تلـك. لذا، فإن محاربته أصعب من محاربـة العدوين الآخرين. ففي مولدوفا، مثلا، يكابد أكثر مـن نصف السكان تحت خط مستوى الكفاف، كما أن فردًا واحدًا فقط من بين أربعة أفراد يلتحق بما يمكن أن يسمّى وظيفة ثابتة.

ومـع أن مجموع سكان البلاد لا يتعدّى الخمسـة ملايين نسمة، إلا أن نحو عشـرة آلاف بنـت من عمـر 15 — 20 سنة يهاجرن سنويًّـا دون أن تكون لديهن ضمانات للدراسة أو العمل[16].

وفـي أثناء زيارته الأولى إلى مولدوفـا، التقى بادري تشيزاري بنتًا عمرها 13 سنة، تلقت عرض عمل في روما. كانت أكبر أخواتها الثلاث في عائلة فقيرة. روت له البنت كيف كان أبوها يضرب أمها إذا ما طلبت منه نقودًا لشراء الحليب أو الخبـز، وكيف كانـت تتألم عندما كان يلمّ بأختهـا الصغيرة عارض مرضي. ولهذا، قبلت العرض لتشتري لها الدواء.

ولكن، كيف تلقت هذا العرض؟ رأت إعلانًا في لوحة على جانب الطريق عن وظائـف لعارضات مراهقات. وعندما ذهبت لاختبار الأداء وشاركت في لقطات تصوير، قال لها مندوب التوظيف: سوف تكونين عارضة مثالية لحملة دعاية في إيطاليا. وبعدما أعطاها مبلغًا نقديًّا زهيدا، قال لها: هنالك المزيد في انتظارك عندما تذهبين إلى روما.

ومن أجل تحذير الناس كي لا يقعوا ضحايا لمثل هذه الألاعيب، أطلق مركز «ملكة السلام» برنامج توعية في مدارس مولدوفا. ولحسن الحظ أنه التقى هذه البنت فـي مدرستها قبل سفرها في مغامرة عرضـ الأزياء الموعودة. واكتشف بعد أن تحرى عن وكالة التوظيف هذه، أنها مجرد غطاء لعصابة تهريب، فتدخّل وأنقذ الفتاة من المصير المخيف الذي كان ينتظرها.

ويضع المركز لوحات إعلانات ضخمة في رومانيا ومولدوفيا كأحد أساليب تحذير الفتيات وعائلاتهن من الوعود الكاذبة التي يبثها بها المجرمون لاجتذاب الضحايـا. ويستعرض العاملـون في المركز الصحف يوميّـا بحثًا على إعلانات مشبوهـة عن وظائف في الخارج. وعنـد التّأكّد من هوية المشبوه فإنهم يقومون بكشفه وفضحه على الملأ.

وبفضل هذه الجهود، أنقذ عدد كبير من الفتيات. لكن بادري تشيزاري يرى أن الفقر غالبًا ما تكون له اليد الطولى؛ لأن أي فتاة تكافح من أجل بقاء عائلتها قد توقف أي تفكير أو منطق سليم، وتقدّم على المخاطرة. ولذلك، فإنه يرى أن الوقاية تعدّ الهدف الرئيس لعملياته في أوروبا الشرقية. ويقول: قبل إقناع البنت البقـاء فـي وطنها – أو، في حالة البنت المتورطة فعـلا في تجارة الجنس، قطع علاقتها بها – عليّ أن أقدّر خطورة وضع عائلتها؛ لأن الفقر قاتل أيضًا.

هنـاك بعض المنحرفات اللواتي يخترن طواعيـة أن يصبحن مومسات أو راقصـات في أندية التّعـرّي، مفترضات أن أسلوب الحيـاة هذا لن يكون بقسوة الضائقة المعيشية نفسها التي يعانين منها. وكثيرًا ما تراودهن أحلام الشهرة. وكثيرًا، أيضا، ما يعد الذين يقومون بعملية الاختيار والاستقطاب للبنت الضحية أن بإمكانها جني أموال طائلة، والعيش ببذخ، وربما تقابل رجلاً ثريًّا قد يتزوجها. ولـن يتبدد هذا الحلم إلا بعد أن تجد الفتـاة نفسها في إحدى بيوت الدعارة في باريس أو برشلونة، مرغمة على بيع جسدها لأكثر من عشرة زبائن يوميًّا.

وبعد أن تغلغل عميقًا في الدول الأوروبية الشرقية، اكتشف بادري تشيزاري كيفية استخدام المتاجرين بالبشر الفتيات الصغيرات لأهداف غير الجنس والعمل في بيوت الدعارة. فقد تبيّن له بعد مقابلة عدة فتيات ذهبن إلى أوروبا الغربية؛ قسرًا وطوعًا، أنهن عملن كأمهات بديلات لأزواج أثرياء لا ينجبون أطفالا، مقابل نحو ستة آلاف دولار لقاء هذه الخدمة. وكان يطلب إلى الأم البديلة العيش قريبة من الزبائن طوال فترة الحمل والولادة. بعدها، تستطيع العودة إلى وطنها. وفي معظم الحالات، لا يعرف الزبائن أن هذه الفتاة أُرغمت لتقوم بدور الأم البديلة.

ومن أجل توفير خيارات اقتصادية للبنات الصغيرات، أطلق بادري تشيزاري مؤخرًا مبادرة لإنشاء مشاريع صغيرة بقروض بسيطة ميسرة، للأفراد الراغبين في ممارسة أعمال خاصة بهم. كما يحاول أيضًا إقناع أصحاب رؤوس الأموال الإيطاليين بالاستثمار في الجمهوريات السوفييتية السابقة. وترتكز دعوته هذه إلى معادلة سهلة، هي: إذا ما أوجدنا فرص عمل، وحفزنا التنمية الاقتصادية، فسوف يؤدي ذلك إلى تقليص مخاطر وقوع الفتيات فريسة لتجار الرّقيق الأبيض.

ويعمل مركز «ملكة السلام» على خط موازٍ لخفض الطلب على نساء المتعة. وقد قام العاملون في المركز بدور نشط في إغلاق وكالة للسياحة الجنسية في العاصمة المولدافية كيشيناو، كانت تصدر إلى تركيا فتيات يبلغن من العمر 15 — 16 سنة. وجاء الإغلاق في أعقاب تلقّي العاملين في المركز معلومات عن مشاهدة رجال كبار في السن يدخلون إلى أحد الفنادق ويخرجون منه وهم يمسكون بأيدي فتيات صغيرات. وبعد التّقصّي والتّحري، تبين تورط تلك الوكالة في تجارة الجنس.

سلّم بادري تشيزاري الأدلة إلى نائب رئيس دائرة مكافحة الاتّجار بالبشر في مولدوفا الذي سارع إلى اعتقال أصحاب تلك الوكالة. ولم يلجأ بادري إلى الشرطة العادية؛ لأننا لو أعطيناهم الدليل، لكانوا وضعونا خلف القضبان.

وبالرغم من ذلك، يرفع بادري تشيزاري إلى دائرة مكافحة الاتّجار بالبشر تقارير عن التقدم الإيجابي في تعاونه مع المسؤولين الحكوميين والسلطات القانونية في مولدوفا، بل إن بعض وحدات الشرطة دعت موظفي المركز لتنظيم ورشات عمل حول كيفية معرفة الفتيات اللواتي ربما يقعن في براثن الرذيلة.

ظهرت أول المؤشرات على النجاح الذي أحرزه مركز «ملكة السلام» في مولدوفا في يوليو 2006، عندما منح الرئيس المولدوفي الجنسية إلى بادري تشيزاري؛ تقديرًا لعمله البطولي ضد الاتّجار بالبشر في بلادنا.

تأثير الدبلوماسية الدولية

في أكتوبر من عام 2000، أصدر الكونجرس الأمريكي قانونًا مهمًّا يدعى قانون حماية ضحايا العنف والاتّجار بالبشر. يلزم هذا القانون الحكومة الأمريكية استخدام نفوذها السياسي والاقتصادي لوقف الاتّجار بالبشر حول العالم. ومع أن أي قانون من هذا النوع غالبًا ما يكون مجرد حبر على ورق، إلا أنه جاء واضحًا ومحددًا. (الفصل 6 يحوي تفاصيل أكثر عن هذا القانون ومساهمته في جهود إلغاء الرق داخل الولايات المتحدة).

وعلى المستوى العالمي، يطالب القانون وزارة الخارجية الأمريكية إصدار تقرير سنوي يقيّم أداء حكومات الدول المختلفة في مواجهة المتاجرين بالبشر ومحاكمتهم. ومنذ ذلك الحين، يورد التقرير تفاصيل حالات الاتّجار بالبشر في كل دولة من الدول، ويشرح القوانين والسياسات والممارسات التي تطبقها الحكومات لحل هذه المشكلة. (بعد مرور عقد على إصدار هذا القانون، فشلت الوزارة في إصدار تقييم لأداء الولايات المتحدة في منع الاتّجار بالبشر، ومحاكمة المتورطين فيه، ورعاية ضحاياه).

ويقدّر أداء كل دولة من خلال وضعها في واحد من المستويات الآتية:

المستوى الأول: الدولة التي تلتزم حكومتها تمامًا بالحد الأدنى من مقاييس هذا القانون.

المستوى الثاني: الدولة التي لا تلتزم حكومتها تمامًا بالحد الأدنى من مقاييس هذا القانون، ولكنها تبذل جهدًا كبيرا للالتزام بها.

المستوى الثالث: الدولة التي لا تلتزم حكومتها تمامًا بالحد الأدنى من المقاييس، ولا تبذل أي جهد للالتزام بها.

ويستمد القانون قوته من جانبين، أولهما أن وزارة الخارجية الأمريكية تصدر تقريرًا علنيًّا أمام العالم بأكمله. وهي تفعل ذلك على أمل أن تشعر الحكومات اللامبالية أو المخالفة بالحرج لتغيير سلوكها. وثانيهما أن الدول التي تُصنّف في المستوى الثالث تخضع لعقوبات صارمة، من ضمنها قطع المساعدات الخارجية، ومعارضة الولايات المتحدة لأي طلبات تتقدم بها تلك الدول إلى البنك الدولي وصندوق النقد الدولي.

أصدرت وزارة الخارجية أول تقرير لها عن الاتّجار بالبشر في يوليو 2001. وقوبل التقرير بكثير من الانتقاد والاحتجاج، والترحيب أيضا. فنظرًا لتجاهلها التام للاتجار بالبشر داخل حدودها، صُنّفت 23 دولة ضمن المستوى الثالث، منها: روسيا، إسرائيل، كوريا الجنوبية، رومانيا، ألبانيا واليونان. وقد رحب المراقبون بالتقرير، ولاحظوا أن الوزارة لم تتردد في فضح حتى أقرب حلفائها السياسيين. ولكن الشيء المخيب للأمل هو أن نرى عدة دول أوروبية وضعت في المستوى الأول، مثل هولندا، وألمانيا، واللتان تنتشر فيهما هذه التجارة بكثرة.

وكما هو متوقع، فإن الدول التي حصلت على درجات متدنية أخذت تتباكى، وتمارس ضغطًا سياسيًّا شديدًا انعكست نتائجه في تقرير 2002؛ حيث زعم التقرير أن حلفاء الولايات المتحدة المقربين قد حسنوا أداءهم بأعجوبة. وقد انتقدت

مجموعات حقوق الإنسان ومناهضة الرّقيق هذا التقرير لأن الاعتبارات السياسية كان لها الأثر الواضح في المحاباة.

في حين يؤكّد تقرير عام 2009 أن التحيّز ذو تأثير قوي في عملية التقييم؛ فقد تراجعت 17 دولة إلى المستوى الثالث، منها: كوبا، بورما، كوريا الشمالية، السودان، زيمبابوي، سوريا، وإيران. وقد صادف أن علاقات الولايات المتحدة مع هذه الدول غير ودّية. وفي الوقت ذاته، نُفاجأ بدول ذات سجل سيئ في الاتّجار بالبشر، مثل: ألبانيا، رومانيا، صربيا، روسيا، الهند، إسرائيل، تركيا، وتايلاند، لم توضع في المستوى الثالث. كما أن كثيرا من هذه الدول لا تظهر في قائمة المراقبة في المستوى الثاني، وهي فئة استحدثت في تقرير 2004. وتتأرجح الدول في قائمة المراقبة على حافة المستوى الثالث، ويتزايد لديها عدد ضحايا الاتّجار بالبشر، ولا تظهر أي تقدم للالتزام بالمقاييس الدنيا لتطبيق القانون.

وبالرغم من التطبيق المتحيز لتقرير الاتّجار بالبشر، إلا أنه، مع ذلك، يظل أداة مفيدة جدًّا؛ فكلما زادت الأدلة التي تجمعها مجموعات مناهضة الرق عن أداء دول معينة، ثم نشرها، زادت الصعوبة أمام وزارة الخارجية في تجميل أداء أي دولة بعينها. وبالطبع، فإن الهدف من كل ذلك هو إيجاد حوافز لاتخاذ إجراء حكومي ضد الاتّجار بالبشر.

ناديا؛ نهاية مفاجئة

اعتبرت ناديا نفسها محظوظة جدًّا لأنها لم تقضِ سوى شهر واحد في مدينة شكودر الألبانية، حيث كان سماسرة الجنس الألبان يتبعون البنات في حركة دائمة. وتقول ناديا إنها قابلت في يوم واحد 25 زبونًا جاؤوا لممارسة الجنس معها مقابل أجر.

كان مـن السهل التعرف إلـى أي فتاة أمضت عقوبة فـي شكودر لأكثر من ستـة أشهر، لأنهـا ستبدو منهكة تمامًا. ولـو اعترضت أي فتـاة أو اشتكت، فإن هؤلاء السماسرة سوف يعاملونها بقسوة شديدة. وحتى لو كانت مطيعة لهم تمام الطاعة، فإنهم قد يلكمونها من حين إلى آخر، أو قد يضعون سكينًا على حنجرتها لتذكيرها بعدم التمرد. وتقول ناديا إنهم ضربوا فتاة في إحدى المرات بطريقة وحشيـة اضطروا علـى إثرها إلى إخراجها من بيت الدعـارة؛ ومنذ ذاك الوقت لم تُشاهد أبدا.

كان خلاص ناديا في تقدّم عمرها، إذا عُدّت بعد بلوغها الثانية والعشرين أنهـا هرمة. في أحد الأيام، جاءها أكثر القوّاديـن خسّة وقال لها بسخرية: لقد بعناك للطليان، فهم يقبلون بالدجاجات المسنَّة في روما، على ما أعتقد.

وفي الليلة التالية، وجدت ناديا نفسها تجلس مرة أخرى في قارب مطاطي. ولكـن حجمه كان يعادل أربع مرات حجـم القارب الذي حملها إلى ألبانيا. تكوّم في القارب نحو 40 راكبًا من مختلف الأعمار، من بينهم أم كانت تحتضن طفلا رضيعًا على إحدى ذراعيها، في حين جلس طفل دارج على ركبتها.

بعد ابتعاد القارب عن الشاطئ مسافة قصيرة، اهتاج البحر، فأخذ القارب يعلو ويهبط بهم بين الأمواج المتلاطمة. كان الركاب ينحنون على حافة القارب ليتيعون القيء فتصفح الأمـواج وجوههم، أمّا الأطفال فكانوا يصرخون ويبكون في رعب شديد.

جلس اثنان من رجال العصابات في المقدمة يرقبان أي ضوء لقوارب خفر السواحل الإيطالية، في الوقت الذي كان فيه الربّان مشغولا في الحفاظ على اتزان القارب وإبقائه على استقامة كي لا ينقلب أو ينحرف عن مساره.

ومـع أن الظـلام كان دامسًـا، إلا أن ناديا أبقت عينيهـا مغلقتين. حاولت التركيز على صورة ابنها ستيفان، وعمّا يكون عليه حاله، فتساقطت الدموع على وجنتيها عندما اعترفت بينها وبين نفسها أنها لن تراه مرة أخرى.

وعندما فتحت عينيها، رأت أضواء تتلألأ عن بعد، فسألت الرجل الجالس أمامها: إيطاليا؟

أجل. إيطاليا، أجابها الرجل دون أن ينظر إليها.

فقدت ناديا عقلها للحظة، وأخذت تصرخ وتكرر: إيطاليا! إيطاليا! إيطاليا؟

رد عليها الرجل بغضب: اللعنة! لقد قلت لك! هذه إيطاليا أمامنا، كفى.

فـي عصر ذلك اليوم وقبل صعودها إلى القـارب، سلّمها القوّاد الخسيس كيسًا بلاستيكيًّا، وجدت في داخله جواز سفرها، وبعض النقود الإيطالية، وبطاقة صغيرة عليها كتابة غير واضحة.

عندما تصلين إلى الشاطئ بالغرب من سان فوكا، سوف تجدين مالكك في انتظارك، قال لها. ولكن في حال أنك ضللت طريقك لسبب أو لآخر، فقد أعطيتك رقم هاتفه وبعض النقود لتتصلي به. سوف يأخذك إلى روما حيث ستعملين هناك.

هزّت ناديا رأسها، ومع ذلك، أخرج الرجل مسدسًا من حزامه وصوّبه إلى رأسهـا وقال: سوف نعثر عليك لو حاولت الهرب. لا يوجد أمامك مكان تختبئين فيه؛ فرجالنا ينتشرون على جانبي البحر.

تذكـرّت ما قاله الرجل، لكنها وهي جاثمة فـي القارب الآن وجدت نفسها أمام مشكلة طارئة؛ أوقف الربّان محرك القارب على بعد نحو عشرين مترًا من الشاطـئ، وكان الألبانيان يصرخان ويطلبان إلى الركاب القفز من القارب قبل

اكتشاف السلطات التركية لهم. أخذ ركاب القارب بالقفز، أما الذين رفضوا فقد ألقاهم الرجلان في الماء رغمًا عنهم.

قفزت ناديا إلى البحر، ووصل الماء إلى أنفها. ولكن الأمواج حملتها، ولم تعد قدماها تلامسان رمل قاع البحر، فابتعلت جرعات كبيرة من الماء المالح. لم تستسلم، بل طفت على سطح الماء، وتعثرت وشقت طريقها إلى الشاطئ. عندما وصلت، وجدت أمامها عددًا من الركاب الذين قذفتهم الأمواج يلتقطون أنفاسهم، ثم أخذ الجميع يبتعدون عن الشاطئ خشية اكتشافهم.

اندست ناديا في صدع بين ثلاث صخور ضخمة، ونامت حتى الصباح، واستيقظت على صوت منبّه سيارة، وعندما أطلت برأسها رأت شارعًا لا يبعد عنها أكثر من خمسين مترًا. أخذت تبحث في جيوب بنطالها عن الكيس البلاستيكي، وكم كان سرورها عندما وجدت أن الماء لم يتسرب إليه.

ظلت مكانها وهي تفكر في الخطوة التالية، كانت تعرف المصير الذي ينتظرها إذا ما هاتفت المالك الجديد، وقررت أنها لن تعود إلى ذلك الجحيم مرة أخرى، وإذا كانت المافيا تريد قتلها؛ فليكن.

لم تكن لديها أي خطة، ولكنها أخذت تسير بحثًا عن شيء تأكله. وصلت إلى سان فوكا بعد مدة قصيرة، ودفعت نقود المكالمة الهاتفية لتشتري رغيفًا من مخبز صغير، أخذت تأكله بنهم. عندما عادت إلى الرصيف. اتكأت إلى حائط المخبز، وتركت أشعة الشمس الدافئة تمتص الارتعاش الذي أقلق نومها.

بعد أن ارتفعت الشمس قليلا، أخذت صاحبة المخبز تدور حول المكان، فلاحظت أن ناديا لا تزال جالسة على الرصيف وظهرها إلى الحائط. أدركت المرأة من لقائهما السريع جهل ناديا باللغة الإيطالية، وعرفت من وضعها المزري أنها جاءت للتو عبر البحر من ألبانيا.

رجينا باسيز؟ سألتها المرأة.

هزت ناديا كتفيها لتشير إلى أنها لم تفهم قولها.

ريجينا باسيز؟ كررت المرأة وهي تنطق الكلمات ببطء. بادري تشيزاري؟

مرة أخرى نظرت إليها ناديا بعيون حائرة. ابتسمت المرأة ثم أشارت إلى ناديا أن تنتظر على الرصيف. دخلت المرأة إلى المخبز واتصلت بالملجأ.

لم تعرف ناديا في تلك اللحظة أن رحلة عذابها قد وصلت إلى نهايتها. بعد سنوات، وبعد أن تزوجت رجلا من القرية، وجاء ستيفان ليعيش معها في سان فوكا – كانت تمر بجانب حائط ذلك المخبز باسمة؛ ففي هذا المكان، أشرقت عليها الشمس بحرارة لتنتزع منها كل ارتعاشاتها.

حملة ملاحقة تجارة الرّقيق في أوروبا

في عام 2010، افتتحت حملة ليس للبيع Not For Sale Campaign مكتبًا لها في بلدة هيرنهت في شرق ألمانيا بالقرب من الحدود التشيكية البولندية، وهي منطقة استراتيجية لتهريب الرّقيق الأبيض. وتجري الحملة مفاوضات لفتح مكتب ثانٍ في أمستردام، عاصمة هولندا. إنّ السبب في اختيار هذين الموقعين هو أن تجار الرّقيق الأبيض يجلبون إليهما الفتيات الشابات من أنحاء العالم كلّه – وفوق كل ذلك من الصين وروسيا والجمهوريات السوفيتية السابقة – لبيعهن في سوق الجنس.

كنت قد زرت مدينة كيشيناو عاصمة مولدوفا، في أواخر عام 2009، لمعرفة آخر التطورات في تجارة الجنس عبر أوروبا. وعندما قلت لبعض المواطنين المولدوفيين أن المحطة التالية في رحلتي ستكون مدينة أمستردام، رد عدد منهم بسخرية: حسنًا، سوف تقابل هناك كثيرًا من نسائنا الجميلات.

obeikandi.com

وفي الحقيقة أنني وجدت في الأيام التي قضيتها في أمستردام سوقًا كاملة مخصصة للبضاعة البشرية من مولدوفا ودول أوروبا الشرقية.

إن هذا القبول الطبيعي للاستغلال القانوني للنساء في أمستردام، والطريق السريع للجنس، والوجبات السريعة، هو مصدر عار للأوروبيين كافة.

إنّ المهمـة الأولى لمكتب الحملة الأوروبـي هي الاهتمام بتدريب الباحثين على كيفية تحديد الضحايا والناجيات في مناطق محددة وتوثيق حالاتهن، وإنشاء علاقات وثيقة مع وكالات تطبيق القانون للتدخل عند صدور الأوامر إليها بذلك. ولا شـك في أن البيانات الناتجة من هـذه التحقيقات سوف تكون مهمة جدًّا في الدعوة إلى سنّ قوانين مشدّدة لمحاكمة المهّربين وتأمين الدعم للضحايا.

obeikandl.com